

﴿ اهل التقدير واصحاب السعي والتدبير ﴾

لحضرة الكاتب الفاضل قسطنطين اقدى الحمص في حلب

(تابع لما قبل)

هذا طرف مما يماينه الناظر في تلك الاقطار المسعودة فاذا تفقدت احوالها بعين الناقد الخبير وجدت ثمت من رغد العيش وسعادة الحياة وانتظام الامور وبسطة المدل وترقي العلوم وتقدم المعارف وعزة النفوس ومكارم الاخلاق وحرية الضمائر وسلامة النيات واستقامة الاعمال ما تحكم معه بان هذه البقعة قد نالت من التوفيق النصيب الاوفر وبلغت من الاسعاد غاية الآمال

واذا نظرت الى المدينة القلانية وقد طلقها الجدث وفارقها البخت رأيت ازقتها الضيقة القصيرة الموجة مظلمة با عقد فوقها من الاقية وامتد من السوايط حتى انك لا تكاد تهتدي الطريق ولا تستطيع ان تميز المارتين في رائحة النهار وفي وسط اكثرها مجاري الاقدار تكشف للناس وسرت رواثها الخبيثة في انوفهم فيعبر ذو الذوق فيها راكضاً ولا يصدق انه ينتهي منها سالماً معافى وهو ينفور وينجد ويسقط وينهض متعثراً بالكلاب النائمة في وسطها او المتجمعة على قامة قد رماها السكان بجوار تلك الطريق الموحلة . هذا عدا ما يزعجك من الحمير المحملة حجارة او زبلاً والجمال المثقلة بالاحمال العظيمة حتى انها لتسد اعرض طرقات المدينة والطامة الكبرى عندما يلتقي الجمل بالجمل والناس بينهما معرضين لرحمة هذه الحيوانات فضلاً عما يعترض لك من سائقي بغال النقل الذين يمرّون بك كالسهم المنطلق فان اخذت لنفسك الالهية والتجأت الى دهليز (والدهاليز بمحمد الله كثيرة) او حانوت او باب مفتوح سلمك الله

من الخطر ونجاك والآن وقت صريح سوقهم وكنت من المخطئين ولا من يسأل
 عن ذلك ولا من يردع . ثم انك لتمرّ بدكاكين الباعة وقد نصبوا على جانبيها
 وامامها اهراماً من السلع الكاسدة والمتاع الرديء والبضائع التي قلبت عليها
 الاحقاب وتناقلتها يد الخلف عن السلف ونسج عليها العنكبوت قصوراً وهي
 ليست من النفاسة في شيء منصوبة كلها فوق صناديق كبيرة فارغة وقد يضع
 الفرد من الباعة ستة او سبعة من تلك الصناديق الواحد امام الآخر اوفوقه وهو
 غير مبال بتضييق الطريق او السوق فوق ما هي عليه من الضيق وقد شرحت
 طرفاً من هذه الحال في فصل آخر . واذا مررت بسوق لم تسقف بالحجر
 او بالخشب تراها مسقوفة بالحصر العتيقة المحرقة والحرق البالية الممزقة والزبابل
 المنتنة ممدودة على اعواد رفيعة او اخشاب مخورة والسنابر والكلاب تركض
 فوقها من سوق الى اخرى وقد يتفق وقوع كلب او سنور على رأس احد
 المارين . هذا عدا غريب منظر هذه السقوف وقد تدلت منها اطراف تلك
 الحصر والحرق البالية خصوصاً ايام الامطار اذ تسيل منها المياه القذرة فوق
 المارين وتنصب على رؤوسهم واعناقهم فتصنع ثيابهم بالالوان المختلفة وكأنها
 تعارض النقوش البديعة التي يراها انسانك على جدران المدينة المسعودة . ثم
 انك لا تخطو بضع خطوات حتى ترى رجلاً مترفصاً او مستوفزاً يبول على
 حائط في عرض الطريق او الشارع وهو متخّ ذراعاً او اكثر عن الحائط لا
 يستحي من فعله هذه ولا ينجس ممن يمرّ به من اهل الاقدار وصبيان المكاتب
 وربات الحدور ذوات الصون والعفاف . وقد تمرّ بفسح (تضارع الساحات التي
 قدم ذكرها ولا تشبه) قامت في وسطها شجرة قديمة العهد قد نخرها السوس
 واتخذها جيران ذلك لمكان لربط خيلهم وبنالم وحبرم والجمال قد أنيئت

باحمالها واثقالها والزبل قد ملأ تلك الفسحة بين منشور ومنشور والذباب يهاجم
 المارين ويلطم وجوههم ويطن في آذانهم والكلاب تنبح ان مر بها ذو نعمة
 على عكس ما قال بعض الشعراء في باب الفنى والفقر لانها قد ألقت اكل
 العظام النيئة وقات الخبز اليابس وشم رائحة الدهن الخيث والسمن المتن ولم
 تعد شم الطيوب التي تطيب بها اهل الذوق السليم ولا ألقت عيونها النظر
 الى زى اهل الحضارة والنعيم. وقد تمر بمطاعم ثاباها من مطاعم فان رائحة لحم
 الجمل ولحوم الماعز والنعيم البائنة المشوية على النار يتفرز منها ذو الذوق وتعاها
 النفوس الابية وأضف الى ذلك رائحة ذفرة الجزار صاحب المطعم المذكور
 والصحاف الموضوع فيها المشوي والحوان الوخم وكل ما تشاهده في ذلك
 الدكان مما يُنفر منه ويُبتعد عنه. واذا اجلت طرفك فيما حوله من دكاكين
 الجزارين والبقالين والسمانين والخبازين القذرة وفي ملابس اصحابها الوسخة وفي
 الباعة على ظهور الحمير الذين يعترضون لك في وسط الطريق بالاحمال الكبيرة
 وفي الكلاب المتقلبة من دكان الى آخر وفي هراشها بين ارجل العابرين وغير
 ذلك من المناظر والاحوال التي تنقبض منها النفس وتشمز عدا ما تراه على
 وجوه الاهلين من سياء الكابة والقنوط حكمت جازماً بان التوفيق لم يمر على
 تلك الربوع ولا جاز بهاتيك المدينة وانه سلها الى رحمة الخموس ثلاعب بها
 يد البؤس وتقلب بين عوامل الشقاء فهي عرضة مصائب الدهر ونوازل الايام
 لا تكاد تخلص من وباء حتى ينزل بها حريق هائل او تنهض من مجاعة وتحط
 حتى تقع في كساد مقتر وأيقنت ان السعد والتحسن هما الفاعلان في تقدم هذا
 وتهتر ذاك ونجاح زيد وفشل عمرو وعلو سعيد وانحطاط صالح وكلهم كما علمت
 لم يسعدوا باهليتهم وسعيهم ولا شقوا بخمولهم وكسلهم بل هي احكام التوفيق

وقضاء الحرمان

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألقِ دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طوراً وطوراً تبيء بحماةٍ وقليل ماء

وقال الفريق الثاني لولا السعي والعمل لما وصل الانسان الى حالة
التمدن التي نراه عليها الآن في أكثر جهات الارض ولا قيض له الاجتماع
الآثل الى غبطة نوعه بل لما تسرت له اسباب البقاء ولولاها لما عاش في بدء
امره وقد كان تامها في قفار الجهل هائماً على وجهه في سباسب العجبة ضارباً
في الاودية والجبال ورآه حيوان يقنصه او نبات يأكله او سمكة يصطادها
غير عالم من سابق امره شيئاً ولا مقدراً امراً من آتیه وانما جل سعيه كان
ورآه قوته فلولا سعيه وعمله لما استتب له الحصول على غذائه اليومي وبسببهما
أُتيح له مصادقة سواء من بني جنسه فتعاونوا على دفع المضرة وجلب المنفعة
وزاد سعيهما وعملهما فوجدوا آخرين من نوعهما عاثين على شاكلتهما فانضمت
فئة الى اخرى وتوالى ذلك الانضمام حتى كانت العشائر فزادت كالياتهم على
حاجياتهم بالمعاونة على السعي والعمل فاحتبسوا الحيوان الجامع النافر وروضوه
للانتفاع به واتخذوا وبره قسجوه خياماً ثم توصلوا الى معرفة الحبوب النافعة
وتميز الاتمار الصالحة ثم الى طريقة حفظها وزرعها وحصدها وطحنها وعجنها وخبزها
وكل ذلك لا يتم الا بالسعي والعمل ثم شرعوا في بناء القرى فالبلدان الصغيرة
فصارة المدن والامصار العظيمة ولا يخفى ما تخلل ذلك من ترقى الانسان في
الصنائع والعلوم والفنون ومن الشرائع مما احتاج الى الكد والنصب والعناء
الطويل ولم يتم الا ويد الانسان عاملة فيه تجري به احكامها في السراء
والضراء ولو اقام يترقب السعود والطوالع ويتدرد التجم اللامع ويتمسك بالقال

الكاذب الخادع ويمتد بالحظ والتوفيق ويمتد مع انجحت العهود والمواثيق لما
أكل الآ الجوع ولا عاش الآ اياماً او بعض ايام

واذا راجعت تاريخ القرون الفائرة وتأملت في حالتي العمران والخراب
رأيت السعي والعمل ملازمين أولى الحالتين بل ربما وضع لك ان الاعتقاد
بالتوفيق والحرمان هو احد اسباب الخراب بل اشدّه ضربة على العمران وقل
ما تجد هذه العقيدة في البلاد السعيدة وكثيراً ما ترى علماء وعقلاء تلك البلاد
يستخفون بها وجل اتكلم على سعيهم واعمالهم البدوية والعقيلة وتجد هذا المبدأ
شائناً في البلاد الشقية المنحلة وعند الامم التي لم تشرق عليها انوار العلوم الصحيحة
والشعوب التي ألفت الكسل وسرى في عروقها سم الحسد ودب في دماء الخمول
ومات منها العصية وعدمت محبة الوطن وقعدت من بينها عزة النفس وفارقت
رووسها النخوة . وكما تبعت امر هذا الزعم وجدته متأصلاً في التحوت الذين
يلجأون اليه ستراً لمعايهم ودفماً لتقريع مؤنهم على قاعدتهم عن العمل وقد لا
يكتفون بذلك فيخذون هذا المبدأ ذريعة لتتديد بذوي الاقدار وارباب
المراتب واهل العلم والفضل والثروة الطائلة ممن لم يصلوا الى تلك المترلة ولم
يلفوا ما نالوه من الشهرة والغنى الآ بعد الجهد والمنا وطول الروية والتفكر
ومزيد الاكباب على الدرس وسهر الليالي ومعاركة الايام ومعاناة الامور العظام
ولله ابو الطيب حيث قال

تريدون لبيان المعالي رخصة ولا بددون الشهد من ابر النحل

ستأتي البقية

